الفصل الرابع

السودان

الناس والأرض

هذه الأرض الشاسعة التى تمتد آلاف الأميال من الشمال إلى الجنوب ومثلها من الشرق إلى الغرب ، والتى حباها الله تعالى ، بالإضافة الى اتساع رقعتها ، ثروات مائية تفيض وتجرى فى ربوعها . فهناك النيل الأزرق ، ونهر عطبرة ، والدندر ، والرهد .كل ذلك يجري فى هذه البلاد بقدرة الخالق سبحانه وتعالى ليفيض بالخير على أمته التى استوطنت فى تلك الرقعة من الأرض .

ولهذا الاتساع أثره من حيث المناخ ، ففى شمال البلاد تنعدم الأمطار أو تقل. وتمتد الصحراء واسعة مدى البصر لايحدها حد ، ولا يعترضها معترض ، حتى تدخل فى غياهب إفريقيا والصحراء الكبرى من ناحية الغرب ، وتلاصق البحر الأحمر من الشرق . فإذا سرت جنوبا من حدود البلاد الشمالية المتاخمة لمصر فى فصل الخريف الذى يبدأ فى يوليو من كل سنة ، وينتهى بعد شهرين

من ذلك ، تجد أن الأمطار تصب فى هذه الفترة ما بين قليلة فى الشمال إلى فوق المتوسط فى وسط السودان . وهنا تشعر بقدرة الخالق جل وعلا الذى يحيى الأرض بعد موتها . وتجد الأرض التى كانت جافة المسام ، معروقة الأعشاب ، ملتهبة الظهر قد تبدلت شيئا آخر ما بين عشية وضحاها . وإنك إذا سرت فيها جافة فى صباحك ، وعدت إليها عند الأصيل وهطل عليها الغيث وجدتها قد صبغت ظهرها بخضرة جديدة منبثقة كانبثاق الحياة ، ووجدت الأرض القاحلة من كل شىء قد تدثرت بشتى أنواع البرود ، وكممت بالسحب من كل لون وحجم . ومع نزول الغيث واخضرار الأرض يلجأ الناس إلى زراعة ما يقتاتون به ، وما يتدثرون . ويكثر الضرع ، وتفرح الدواب ، وتنشط القلوب .

هذا الإقليم الأوسط هو الذى تكثر فيه الزراعة المطرية بالإضافة إلى الزراعة المروية ريا إنسانيا . ففى هذا الإقليم توجد كبرى المشاريع الزراعية مثل مشروع الجزيرة ذى المليون فدان ومشروع الجنيد ذى المليون فدان أيضا ومشروع الرهد وغير ذلك من المشاريع التى تزرع القطن والذرة والقمح بشكل رئيسي وغير ذلك من المنتوجات الزراعية . أما تلك الأراضي التى ترويها الأمطار فإن حصادها هو السمسم والفول السودانى والذرة وكلها حاصلات زراعية تسهم فى إثراء السودان .

ولا ينسى السوداني منذ القدم أن يزرع ما يحتاج إليه من بقول و خضروات وفاكهة حتى يؤمن للضيف ولنفسه مئونه حياته لعام كامل أو ينيف .

وفى جنوبى البلاد تزداد كميات الأمطار التى ينزلها ا لله سبحانه وتعالى ، وتتغير البسيطة من أعشاب وشجيرات إلى أشجار غزيزه وكثيفة عميقة من العشب فتصبح غابات تقل وتزداد كثافتها بين كل جهة وأخرى .

هكذا نرى السودان ، فهو صحراء فى شماله ، معشوشب مخضر فى بعض شهور السنة فى وسطه ، وتغلب الغابات على جنوبه . وكذلك نجد سكانه ، فهم قله فى الشمال تزرع على جوانب النيل وضفافه منذ أن حلت أقدامهم بتلك المنطقة ، ومنذ أن فجر التاريخ مدنيته . فهم من أبناء ممالك النوبة المتعاقبه التى عاصرت الفراعنة وصرعتهم حينا من الدهر ، وهى التى حمت أرضها من الفرس ، وهى التى دافعت عن ترابها ضد الرومان ، وهى التى أثخنت العرب والمسلمين جراحا ، وفقأت عيونهم بسهامها فى الإسلام ، وهي التى رحبت بالعيش جنبا إلى جنب مع القبائل العربية النازحة من نير المماليك والأتراك فى مصر ، ومن شظف العيش فى الجزيرة العربية ، ورحبت بهم ، وقاسمتهم السراء والضراء .

وشرقي ممالك النوبة تقع ممالك البجة الخمس التى زارها ابن حوقل وغيره . وهم أيضا بشكيمتهم القوية وشجاعتهم النادرة ، واستماتتهم فى القتال شاركوا ممالك النوبة فى الدفاع عن أراضيهم وخاصة مناجم الذهب فى وادى العلاقى ضد الفراعنه وكل من دخل مصر من الغزاة الفاتحين حتى جاءهم العرب ، فقبلوا قبائلهم ، وتزاوجوا معهم ، واختلطوا بهم ، واعتنقوا الدين الإسلامي ليصبحوا أمة عربية مسلمة .

وفى الوسط حيث المراعى الخصبة تدفق العرب أيضا بأنعامهم وإبلهم وأغنامهم ، وضأنهم فوجدوا الخضرة والخصب الذى لم يكن لهم مثله فى وطنهم ، وانتشروا فى ذلك الفضاء الفسيح من شرقي السودان المتاخم لحدود الحبشة إلى غربه حيث يجاور تشاد . وفى هذا الخصب كثرت أنعامهم وازداد نسلهم ، واختلطوا بأهل البلاد حتى تغيرت سحنتهم ، ولكنهم احتفظوا بلسانهم العربى ، وخلقهم الأدبي ودينهم السمح ، ولم تكن تحدهم

قوانين ، أوتربطهم أوامر . ولكن كان وازعهم الدينى ، ومثلهم الأخلاقية ، وشممهم القبلية ، وحفاظهم على حسن الأحدوثه ، والذكر الطيب ، هى التى حفظت لهم دينهم ونسبهم وحسبهم وخلقهم .

لقد اخضرت بشرتهم كما قال القرشي حين أنشد :

وأنا الأخضر من يعرفنى أخضر الجلدة من بيت العرب (١)

وما زال السودانيون يسمون لون البشرة الداكن بالخضرة (وهى فى نظرهم أصل الحسب والعروبة لا تلك المشوبة بالحمرة الناتجة عن الاتصال بالدم الرومي أو الفارسي أو التركى . ومع توالي الأجيال والقرون حفظ السودانيون أنسابهم التى ورثوها عن آبائهم واعتزوا بأجدادهم وقبائلهم الأصلية التى هاجرت الى السودان وبقيت فيه حتى الان . وانتشرت سراياهم وطلائعهم حتى تاخمت الغابات[٦٥].

وفى ذلك الإقليم الذي غطته الغابات نجد قبائل السود التى يعتقد بعض علماء الأجناس أنها قبائل قوقازية انحدرت من منطقة القوقاز فى التاريخ السحيق حتى استقرت فى مجاهل إفريقيا. ولقبائل السودان الجنوبى لهجاتها المختلفة التى تتكلم بها كل قبيلة على حدة ، ولكن عند ما يتحدث أحد أبناء الجنوب مع آخر من قبيلة مختلفة فإنهما يتحدثان باللغة العربية الدارجة التى تم تطويعها لمقتضيات ظروف الحياة فى جنوب السودان. ويشترك أبناء السودان الجنوبي مع إخوانهم فى الشمال فى بعض السمات الخلقيه التى تظهر

---

٧ لقائل هو الفضل بن العباس بن عتبه بن ابى لهب بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف وهو أحد شعراء بنى هاشم المشهورين وفصحائهم المعددوين : محمد صالح ضرار تاريخ البحر الأحمر .

بوضوح الانتماء إلى الوطن الواحد ، فهم كسائر أبناء الشمال يتحلون بشجاعة نادرة ، وجسارة مميزه ، وأنفة وعزة نفس ، كتلك التى يتخلق بها أبناء شمال البلاد .وهذا ما جعلهم يستميتون هم والشماليون فى معاركهم ضد من حاول اغتصاب البلاد من مستعمرين وغازين .وكلاهما يجب الانخراط فى الجندية للاستبسال فى ميادينها .

كذلك نجد أن كلا من أبناء الشمال والجنوب والوسط يعيش فى بيئة قبلية .وهم بجانب الاعتزاز بالانتماء القبلي يعتزون أكثر وأكثر بالانتماء القومي. فمن جهة تكسبهم القبلية روح الترابط المحلي ، وتدثرهم القومية السودانية بتيارات القومية العصرية .

والسوداني أنى ذهب فى مشارق الأرض أو مغاربها ، يعتز بسودانيته ، ويشعر بأنه سفير بلاده فى غربته .فتراه يبعد نفسه عن كل ما يمكن أن يؤذى سمعة بلاده ، ويأنف من الخوض فى مسائل تؤثر على صورة وطنه الممتازة التى يضعها إخوانه وأبناء قومه لبلاده .وقد يعادي القريب أو البعيد فى وطنه ، ولكنه إذا خرج فى غربة فإنه ينسى العداوه والشحناء ، ويجعلهما وراء ظهره لا تؤثران عليه ، ولا يتأثر بهما. وتراه أخا لعدوة وحميما لغريمه ، ومدافعا عن خصمه ، ولا يقول عنه إلا الخير ، ويقف بجانبه كالبنيان المتماسك ، وهو لا يغتاب زميله أو عدوه ولا ينافسه في اغترابه ، بل ويتبنى مشكلاته ، ويسعى إلى حلها .

حدث أن توفى أحد السودانيين فى ليفربول فى إنجلترا قبل ثلاثين عاما أو تزيد ولم يكن هناك فى تلك المدينة الإنجليزية سودانى سواه .وعلمت بعض الأسر اليمنية التى كانت تعيش هناك بوفاة ذلك السوداني المسلم فاتصلوا بالجالية السودانية فى كاردف يسألونهم أن يسمحوا لهم بدفنه .فردت

عليهم الجالية السودانية شاكرة لهم اهتمامهم، ومقدرة لهم شهامتهم .ولكنهم ذكروا لها بأنهم يؤثرون الحضور بأنفسهم لغسله وتكفينه والصلاة عليه ودفنه واقامة المأتم عليه فأخذوا أسرهم النصف إنجليزية واستأجروا حافلات ثلاثا من كاردف وانطلقوا حتى ليفربول حيث أقاموا المأتم وترحموا على المتوفى وعادوا أدراجهم دون أن يعرفوا من هو .

وللمآتم فى السودان اعتبار كبير وهم يطرقونها للتعزية كواجب منهم إذ أن الإخوان لا يعرفون إلا فى الشدائد ، ومن ثم فهم يحسنون العزاء والمواساة ولا يتأخرون عنها مطلقا ، بل إنهم يتركون أعمالهم الرسمية فى سبيل أدائها .وإذاعة امدرمان تذكر بشكل عادي فى نشراتها الوفيات التى تصلها والمقبرة التى سيدفن فيها المتوفي وزمن الدفن ومكان إقامة المأتم . والنشرة التى تنتهى فى الساعة السابعة إلا ربعا من صباح كل يوم هي من أهم ما يستمع إليه السودانيون .وقد يبدو هذا مبالغة ، ولكنه الواقع وإلا لما حرصت الحكومة على إذاعة مثل هذه الأنباء إن لم تكن شعورا عاما بين السودانيين قاطبة .

ومن بين عادات السودانيين التى يتميزون بها أنهم باستثناء بعض الأحياء فى المدن الكبرى كالخرطوم وبورسودان فإنك كثيرا ما تجد الناس فى شهر رمضان المبارك ، وقد افترشوا الأبسطه البسيطة أو البروش فى الطريق ووضعوا مأكلهم ومشربهم لإفطار رمضان ، وجلسوا جماعات جماعات يترقبون أذان المغرب ، حتى إذا مر بهم عابر سبيل مهما كانت حيثيته استضافوه وعزموا عليه أن يتناول معهم وجبة إفطار رمضان .وما زالت هذه العادة متبعة فى بعض الأحياء فى المدن ،ولكنها كثيرة منتشرة فى القرى .

والسوداني صبور على ما ينتابه ، يواجه قسوة الحياة بشجاعة .وقد ذكروا أن الخليفة عبد ا لله التعايشى الذى حكم السودان فى ثورة المهدية بين سنة ١٨٨٥ – ١٨٩٨ م ألقى القبض على أحد أعيان البلاد وكبل يديه ورجليه بالحديد ، ثم أخذ يهدده ويتوعده .فلم يذعن السجين.فأمر بأن يؤخذ ليشنق .فوجد أنه لا يستطيع أن يمشي والحديد فى رجليه. فأمر بأن يترك حتى الغد .ولكن هذا السجين قال إن لم يكن هناك حداد لفك هذه القيود فلابأس من بتر القدمين لإخراج القيود .فجرد من قدميه ، وعلق فى المشنقه دون أن تطرف له عين ، أو تظهر على وجهة مشاعر الألم . وليس هو نسيج وحده فى تحمل الألم ولكنه يمثل فقط أبناء بلده .

ومن بين العادات التى كانت منتشرة حتى منتصف هذا القرن فى السودان بين القبائل العربية عادة البطان .هذه العادة التى بدأت تختفى من المدن تماما ، وتبقى على قله فى القرى. ولا أعرف من أين جاءت هذه العاده أهى عربية محضه ، أم خليط من العادات السودانية الأصلية والعربية .ولعل القارئ العربى بالمملكة العربية السعودية أو غيرها من البلاد العربية الأخرى يدلنا عما إذا كانت هذه العادة معروفه فى المنطقة التى يعيش فيها .

والبطان هو المبارزة بالسوط " الكرباج " ، وموسمها عادة فى الأعراس حيث يتوافد أبناء القرية أو القبيلة إلى حفل العرس حيث يجتمع الرجال فى ناحية والنساء فى ناحية أخرى .ويلبس العريس ملابس الفرح . وبالإضافة إلى اتشاحه بالسيف فى يساره ، يمسك السوط بيمينه ، ويجىء إليه الشبان زرافات ووحدانا ويقولون له :"أبشر " ، فيهز يده بالسوط أو بالسيف ، ثم قد يتحمس أحد الشبان وهو يستمع إلى الزغاريد والدفوف ويستنشق عبير البخور والطيب والخضاب بالحناء ، فيهتز طربا ، ويمتلىء

حماسا ، ثم يقول للعريس " أبشر أنا أخو البنات عَشَرَ " . وهذا يعنى أنه على استعداد للدفاع عن بنات العشيرة كما يدافع الأخ عن أخواته ثم يطلب . من العريس أن يجلده بالسوط عشر جلدات . ولا مناص للعريس من ذلك .ويخلع المبشر طالب الجلد ثوبه من ظهره ، ويعريه ، ويقف مرتكزا على قدميه فى الأرض ، وقد تمنطق بثوبه حتى وسطه ، وينهال عليه العريس ضربا بالسوط واحدة بعد الأخرى بأشد ما يستطيع ، وهو وسط الدفوف التى تعزف ، والزغاريد التى تهلل يقف مسمرا فى مكانه لا تطرف له عين ، ولا تهتز له خلجة ، أو تتحرك عضله ،وكأنه نصب من مرمر . وتعلو الزغاريد ، وصيحات الفرح ، ويقفز قفزات كلها نشوة وطرب لانه برهن لكل الحاضرين والحاضرات على أنه قادر على الدفاع عن حريم العشيره بقوة صبره واحتماله للألم .ولكن ليلة العريس لا تنتهى بذلك ، إذ يدخل الشباب إلى حلبة العرضة ، ويعرضون بسيوفهم وعصيهم ، ويقفزون قفزات كلها خفة ومرونة ثم يتحدى كل منهم الآخر ، ويقف اثنان منهم فى وسط حلقة العرضة ، ويتمنطقون بأثوابهم ، حتى الوسط ، تاركين صدورهم وظهورهم عارية ، ثم يمسك أحدهما السوط ويجلد منافسه أمام القوم بقوة ومهارة حتى يمزق جلده ويتناثر الدم من جراحه ، وهذا متكىء على الأرض بساقيه ، شامخ الرأس ، مرفوع الأنف ، مستيقظ العينين ، حتى إذا أخذ حظه من السياط من واحد إلى ما شاء الإثنان من عدد ، أمسك السوط بدوره وعرض فى وسط الحلبة ، ثم التفت إلى منافسه .وبين زغردة النسوة ، وحماس أغانيهن ، رد الصاع صاعين إلى من جلده أول مرة أملا فى أن يجعل عضلاته تختلج ، أو جفنه يطرف ، أو جسمه يهتز. ولكن لا يحدث شيء من هذا القبيل. ويمضى الجميع فى هذه التحديات الفردية التى

يطلق عليها فى السودان " البطان " حتى تنتهى حفلة الزفاف قرب الفجر ، فيمضى كل إلى مأواه مثخن الجراح ، قرير العين ، فرح الفؤاد بما ناله أمام الجميع من حسن السمعة ، وقوة البأس والاحتمال ، وكثرة السياط التى مزقت إهاب ظهره حتى لم يبق له جزء ينام عليه .

ويصحو الجميع من نومهم فى اليوم التالى وظهورهم قد ألهبتها جراح السياط ، ولكن ليس منهم من يشكو أو يتألم . ويتحدثون عن التمثيلية التى قاموا بها فى الليلة الماضية بنفوس راضية .هذه القرى التى يتألق أبناوها فى تحمل الألم هى نفس القرى المضيافة التى ينزل إليها الغريب فيستقبله أى رجل من القرية وهو داخل إليها على زاملته أو جمله أو حماره ، فيمسك الرجل بزمام الدابه ويقودها إلى منزلة (دار) أعدت فى وسط القرية لينزل فيها الغريب.وما أن استقر به المقام فى السرير (الذى يسمونه عنقريب) فى تلك الخلوة أى دار الضيافة حتى يأخذ الرجل المضيف الدابه ليسقيها ، ثم يحضر معها علفها من أعواد القصب وبعض الذرة . فترتاح الزاملة أو الحمار من عناء السفر. وفى نفس الوقت يتوافد رجال القرية على الضيف :كل منهم يحمل فى يده إناء فيه الآبريه أو الحلومر ، وكلاهما شراب من الذرة بدلا من الشربات يذهب الظمأ ، ويبل الريق ، فيشرب الضيف من (كورة) زبديه أى وعاء من هذا وذاك ، وهم يلحون عليه فى أن يقطع ظمأه ويروي غلته ، فيجد أن بين يديه الكثير والكثير .وما يزال يشرب حتى يرى أنهم أخذوا يناولونه الشاي إما باللبن الحليب أو بدونه .وتهبط فى الخلوة عشرات من (البراريد) الآباريق وفيها الشاي ليشرب منها الغريب.وما إن يحين وقت الطعام حتى ينساب إلى مقر الضيف هؤلاء الكرام وفى ايديهم صواني(تباسي) قد حملت بأنواع الغداء المختلفة التى يعرفونها

أما إذا راوه أفنديا أي من موظفي الحكومة فقد يحاولون طهي ما يشتهية أهل الحضر ، ويجلسون معه ليأكل من زاد هذا وذاك. وتستمر هذه الحالة حتى يرحل عنهم ليستقبلوا غيره وغيره لا يسألونه من أين جاء ولا الى إين ذاهب . فهذه حالهم فى استقبال الطارق الغريب .

والسودانى ودود ألوف . وإذا نزل أحدهم ضيفا على قريبه أو زميله أو صديقه تبناه الجميع ، ودعاه الجميع إلى دورهم ، وأولوا له الولائم ، وذبحوا الذبائح ، وفتحوا له بيوتهم وصدورهم ، فهم لا ينتقرون ولكن يدعون الجفلى ، ولا يعدون الولائم المقفوله من شيم أبناء العرب .

وأهم ما يميز مبانيهم سواء أكانت في المدن أو القرى أن صاحب الدار إذا أراد أن يبني داره فإن أول ما يخطط له ديوان الضيوف ، فيبني الغرفة أو الحجرتين ، ومعها دورة المياه قبل أن يبني حجرة أهله وعياله ، فهو يرى أن الدار التي لا تتقبل الضيوف والطراق ليست بدار يجدر اقتناؤها . وقد كنت ضيفا على الكثيرين في دورهم تلك ، وأنا بينهم غريب جئت من البحر الأحمر ، فكنت أرى في داخل السودان ما عقد لساني دهشة ، وخيل الي على الرغم من كرم أهل شرق السودان ، أن بقية السودان لا يمكن أن يجد الإنسان فيه حاتما لأنهم كلهم حاتم ، بل إن حاتما يتضاءل كرمه إذا قيس بكرم هؤلاء ، ولو كان بينهم لما اشتهر هو وحده بذلك دون غيره من ملايين العرب .

وعندما كثرت السيارات بعد الحرب العالمية الثانية في السودان ، أصبح كثير من الناس يتنقل بها خاصة في أرجاء أرض الجزيرة ، وكان سكان الخرطوم والمدن الأخرى يتندرون ويقولون بأن عرب الجزيرة الآن بعد أن

كانوا يقدمون العلف لمطايا الضيوف ، أصبحوا يأخذون سياراتهم إلى محطات البنزين ويملأون خزاناتها هناك ، وما أجدرهم بعمل ذلك .

ذكر المقريزي في خططه عن صعيد مصر " وبلغ من عمارة الصعيد أن الرجل في أيام الناصر محمد بن قلاوون وما بعدها كان يمر من القاهرة إلى أسوان فلا يحتاج إلى نفقة ، بل يجد بكل بلدة وناحية عدة دور للضيافة إذا دخل دارا منها أحضر لدابته علفها وجئ له بما يليق به من الأكل ونحوه . " وآل أمره الآن إلى أن لا يجد الرجل أحدا فيما بين القاهرة وأسوان يضيفه لضيق الحال . ثم تلاشى أمر بلاد الصعيد منذ سنة الشراقي في أيام الأشرف شعبان بن حسين بن محمد بن قلاوون سنة ست وسبعين وسبعمائة ، وتزايد تلاشيه في أيام الظاهر برقوق لجور الولاة ولم يزل في إدبار إلى أن كانت سنة ست وثمانمائة وشرقت مصر بقصور مد النيل ، فدهى أهل الصعيد من ذلك بما لا يوصف ، حتى أنه مات من مدينة قوص سبعة عشر ألف إنسان ، ومات من مدينة أسيوط أحد عشر ألف إنسان ممن غسل وكفن ، ومن مدينة هو (ههيا) خمسة عشر ألف إنسان ، وذلك كله سوى الطرحى على الطرقات ومن لا يعرف من الغرباء ونحوهم " [1]

وسنرى في معرض حديثنا في هذا السفر كيف اضطرت القبائل العربية التي كانت تسكن صعيد مصر إلى الهجرة عن مصر العليا والنزوح إلى السودان بسبب قسوة الولاة من المماليك والأتراك على العنصر العربي حتى أخرجت الكثير من القبائل العربية الرحل من صعيد مصر فنزحوا إلى أراضي السودان الخصبة ، ومراعيه الفسيحة ، ووجدوا فيها خير وطن لهم . وما أشبه هذا الذي وصفه المقريزي عن القبائل العربية في صعيد مصر ، بما ذكرناه

---

٨ المقريزى الخطط ص ١٩٠ المطبعة : دار صادر

عن عرب أرض الجزيرة في السودان ، بل وبقية القرى السودانية جمعاء حيث حل فيها العرب ، وامتزجوا بسكانها الأصليين الذين لم يكونوا أقل كرما ممن وفد عليهم من قبائل عربية اتحدت معهم. هذه الشيم تتجلى في الشعب السوداني قاطبة ، وتراها جلية إذا سأل سائل أو غريب عن مكان شخص فإنهم لا يدخرون وسعا في إيصاله إلى ما يريد سواء أكان موقعا أو شخصا حتى يتأكدوا من وصوله بالسلامة .

وإذا استدعى الأمر فإنهم يستضيفونه حتى يعثر على ما يريد . إن السوداني يتبنى قضيتك خاصة إذا كنت غريبا ، ويؤثرك على نفسه لأنك أجنبي عن البلاد ، ويسعى جاهدا ليجعل لك الحياة سهلة رخية مهما كلفه ذلك من جهد ونفقة ، فهو يعرف أن السودان برحابة أراضيه ، وخصوبة تربته ، وحرارة طقسه ، كفيل باستضافة جميع من في الأرض. وطبيعة الأرض هذه هي التي جعلته سمح المخالطة والود .وهناك صفة أخرى تقترن دائما مع الجود ألا وهي بذل النفس ، ومن هنا كان التعبير العربي عن بذل النفس والنفيس . وقد سبق أن ذكر في معرض هذا الحديث شيئا عن الشجاعة السودانية ولكن هذا شرف قد يدعيه كل جنس . ولذلك فإنه من الأفضل أن يستشهد الكاتب بغيره من الكتاب لتصوير هذه الخصلة في السودانيين . ولعل خير ما يمكن أن ينقل هنا ما قاله السير ونستون تشيرشل رئيس الوزراء البريطاني أيام الحرب العالمية الثانية [٢] والذي حضر المعركة الفاصلة بين القوات البريطانية الغازية للسودان عام ١٨٩٨ م حين قاد كتشنر الفيالق البريطانية ومن ضمتهم اليها من محاربين لقتال السودانيين في معركة كرري في تلك السنة والتي انتهت بحصد المدافعين السودانيين بالمدافع الرشاشة البريطانية

---

٩ كان مراسلا حربيا لاحدى الصحف البريطانية

حتى أفنت زهرة رجال البلاد . يقول تشيرشل :" ليس من العادة أن تلتقي خياله قوية التسليح بمشاة يحسنون الثبات والحرب على أرجلهم ، وفي مثل هذه الحالات فإما أن يهرب المشاة وتلحق بهم الخيالة وتقطع أوصالهم أثناء هروبهم واما أن يحتفظ هؤلاء المشاة بهدوئهم ، ورباطة جاشهم ، ويقضوا على الخياله برصاصهم . أما في هذه اللحظة فقد ارتطم حائطان بعضهما ببعض ، وحارب السودانيون برجوله وبسالة ، وحاولوا أن يعقروا جياد الخيالة الإنجليز ، وأطلقوا بنادقهم ، وضغطوا على الزناد ، وبنادقهم ملتصقة بأجسام أعدائهم ، وقطعوا ألجمة الخيل ، وكل ركاب ، وقذفوا برماحهم بمهارة عظيمة ، وجربوا كل أنواع القتال وفنونه بهدوء وسكينة تعرفان عن الرجال الذين زبنتهم الحروب ، واعتادوا على منازلة الخيالة وقتالهم . وبالإضافة إلى ذلك فإنهم لعبوا بصوارمهم الحادة الثقيلة التي غاصت في أعماق جسوم أعدائهم . وكانت المعركة التي اشتبك فيها الجانبان بالأيدي والسلاح الأبيض على الجانب الآخر من المنحدر قد استمرت لمدة دقيقة ، ثم أخذت جياد الخيالة الإنجليز في السير بخطوات واسعة أولا ، ثم ازدادت الخطوات اتساعا وانسحبت فرقة الرماحة البريطانية من وسط المحاربين السودانيين . وفي خلال دقيقتين من الصدام ، كان كل رجل بريطاني حي تخلص من قبضة السودانيين يكاد لا يصدق بنجاته .

وكان كل الذين سقطوا في المعركة قد تناولتهم السيوف السودانية حتى أجهزت عليهم . ولكن لم تحدث أية محاولة للتمثيل بالجثث التي تناثرت في أرض المعركة " .

كانت بريطانيا العظمى في القرن التاسع عشر أقوى الدول الأوربية عبر البحار ، وكانت تلتهم البلاد في القارات الأخرى واحدة بعد الأخرى .

وجاء دور البلاد السودانية بعد مصر في نهاية ذلك القرن ، وفي هـذه المعركة التي سبقت هذه السطور . والتحم البريطانيون في عدة معارك مع سكان شرق السودان خاصة ، وبقية سـكان وادي النيـل . وكعـادة السـودانيين في مثلهـم المعروف " الموت مع الجماعة عرس " فإنهم كـانوا يسـتميتون في كـل معركـة يدخلونها . ودخلوا مع الجيش البريطاني في معركة انتهت بخسائر فادحـة بـين البريطانيين بالرغم من كـثرتهم ، وقـوة أسـلحتهم وعتـادهم . وكـان الجيـش البريطاني يحارب دائما في تشكيل عسكري عرف بالمربع البريطاني ، إذ كـان الجيش ينتشر في شكل مربع ثم يطلق النيران من جميـع أسـلحته علـى مهاجميـه حتى يقضي عليهـم قبـل أن يدخلـوا أو يلتحمـوا برجـال المربـع . وفي تـاريخ إمبراطوريتهم الطويـل ، هزمـوا كـل البـلاد الـتي التحمـت معهـم في معـارك دفاعية عن الأوطان ، وتغلبوا عليها دون أن يصيبهم كَلْم ، أو يُراق لهم دم ، حتى التحموا بالمحاربين السـودانيي ، ن فكـان لهـم معهـم موقـف آخـر خلـده شاعرهم الانجليزي رايدر كبلنج المعروف بشاعر الامبراطورية فأعطى المحـارب السوداني حقه من الشجاعة والبسـالة والبـاع الطويـل في القتـال ، والجسـارة التي لا حدود لها .

قال كبلنج في قصيدته " المحارب ذي الشـعر الكـث " ، ونقتطـف منهـا هـذه الأبيات . " لقد التحمنا في معارك كثيرة ضد العديد من الرجال عبر البحار . وكانوا يتفاوتون في شجاعتهم ، قوية أحيانا ، ضعيفة أحيانا أخرى . والتحمنـا مع الباثيين والزولو وأهل بورما ، غير أن السوداني ذا الشـعر الأشـعث كـان أروع الجميع . لم نستطع أن ننال منه شـيئا . كـان يقبـع بين الأشـجار ، ثـم يثب على فرساننا ، ويلعب بهم كما يلعب القط بالفأر. لهذا فـإنني أقـدم لهـذا المحارب السوداني هذه القصيدة إهداء له لشجاعته . كان البويـر والبورميـون

والزولو لا يساوون قطرة إذا قيسوا بالمحارب السوداني ذي الشعر الكث . ليست لديه شهادات من الأكاديميات الحربية ، وليست له ميداليات على صدره ، ولكننا نشهد له بالمهارة التي أظهرها في استعمال سيفه الطويل . إن هجوم المحارب السوداني في يوم واحد من أيام سعده ، لكفيل بجعل الجندي البريطاني مكتفيا بذلك اللقاء مدة عام . لذلك فإليك هذا الإهداء أيها السوداني ذو الشعر الكث ، لأنك حطمت المربع .

إنه يعمل سيفه في رؤوسنا قبل أن ننتبه . إنه رمال محرقة ، وزنجبيل حار عندما يكون حيا . إنه قطعة من المطاط المهووس ، إنه الشئ الوحيد الذي لايعطي مثقال ذرة من الاهتمام لفرقة المشاة البريطانيين . إنه هو الذي حطم المربع البريطاني) .

هكذا وصف الشاعر البريطاني كبلنج ذلك المحارب السوداني الذي التقى به في عدة معارك بالأرض السودانية ، واعترف له بالشجاعة والجسارة والإقدام .

ولعل من الإنصاف أن نقف وقفة قصيرة على ما يقوله بعض المؤرخين السودانيين في تحليل شخصية الجندي السوداني ،إذ أن محمد علي باشا عندما كان واليا على مصر قرر فتح السودان لعدة أسباب من بينها " إمداد جيشه برجال السودان ، وكان للسودانيين يومئذ شهرة وصيت بعيد بالبأس والشجاعة . والجندي السوداني هو أشجع من سكن إفريقيا ، وكفاه فخرا أنه هو الذي فتح السودان سنة ١٨٩٨م . أما دعوى الخصوم بأن الجيش المصري والإنجليزي هما اللذان فتحا السودان فباطلة إذ لم يسترد البلاد من أهلها الشرعيين غير تلك الفيالق من السودانيين التي كان يقدمها اللورد

كتشنر وضباطه في الصف الأول من النار ، ثم المصريين ثم بعدهم الإنجليز ، فأخمدوا نار استقلالنا (١) .

هذا من ناحية تحليل الشخصية السودانية واظهار وجهها المشرق . لكن هذه الشخصية كغيرها من الناس لها معايبها ، وسنترك هذه ليسردها علينا من يتصل بهم ، ويتعرف على نفوسهم عن قرب ، إذ أن هذه الأسطر ستتحدث عن المحاسن أما المثالب فلها من يكتب عنها . [١]

---

١٠ محمد صالح ضرار – تاريخ سواكن والبحر الأحمر .